قصة

حكايتي مع الملائكة

بقلم

الكاتبة عائشة بريكات

أم يامن

تقديم

هــذه سلســلة للكاتبــة عائشــة بريــكات، تحكــي يوميــات مــع التوحــد ومواقــف وأحــداث غايتهــا نـشر الوعـي بفئـة التوحـد ونقـل خـبرة ناجحـة لـكل مـن يعنيـه الأمـر مـن أسر وتربويـين. سـيقت بصيغـة أدبيــة جميلــة الأســلوب والــسرد، رائقــة المحتــوى غنيــة المضمــون. نســأل الله أن تكــون ذات وقــع وأثر.

عبد الرحيم بيوم (مدير مجلة الواحة)

فلاشــات غــير ملتزمــة بالتسلســل الزمنــي تــروي رحلتــي مــع التوحــد. تجربــة لا اســتطيع الاحتفــاظ بها لنفسي فقط.

ربــما يكــون بهــا عــبرة مــا.. أو ربــما تكــون كــ: مرجـع لكـم، تظهـر لكـم كيفيـة التـصرف في العديـد مــن المواقــف المحرجــة والمحزنــة التــي نتعــرض لهــا من المجتمع واضطراب أولادنا

ســأرويها لكــم بمشــاهد صغــيرة، ريثــما يــرى كتــابي النور

أم يامن عائشة بريكات

ح1: ابتهالات تحت المطر

أحسست فجأة بالدّم يضحك في عروقي، وبإبتسامةٍ شقيّةٍ تحاول الشروق من خلف ركام العتمة، تتمدد أطراف التفكير،تعيد ترتيب مقاعد الإنتظار وتمسح غبار اليأس عنها.

كرنفالٌ صاخبٌ يُقام على منصةِ الحبل السرّي، أوردتي بارعة التصفيق والدعوة عامة للأمنيات..

وعلى الضفة الأخرى للسرير، وسادةٌ خاويةٌ رغم امتلائها، تمضغ النوم بشهيةٍ، تستلّذ بأحلام مترفةٍ، ترمي فضلات الوقت للأنفاس، غير آبهةً بذلك الضجيج.

يتسرب صوت مؤذن المسجد من شقوق صمت الجدران، تنتابني قشعريرةٌ محببة، وما زلت أبتسم...

سعالٌ خفيف تتعثر به تحية صباحية مبهمة، وايماءة تطالب بقهوة أعددتها مسبقاً لغاية في نفسي..

حدّق بي طويلاً مستغرباً، لكنه كالعادة لم يسأل..

كنت في وجل من أمري لكأنني أُعطيت مفاتيح تأويل الحديث، ارتديت دثاراً يعقوبياً، تنفست بعمق بئر، وقلت: انتظر وليداً...

تلبدت ملامحه، واكفهرت نظراته، وتجمعت السحب في صدري، كانت العاصفة قوية بما يكفي لتنتزع فرحة هطولي، لم يُهدّئ من رعودها إلا نداء للصلاة.

وتحت مظلة الرحمن وقفت خلفه أرتعد، دعوت حتى تسرب المطر إلى وجهي وشعرت بمذاقه،

وفي السجود الأخير همست...

وهبته لك.

ح2: عاشقان وخلوة وحرف

صحوت متأخرةً كالعادة، لا أعلم كم من الوقت قضيته أتأمّل سقف الغرفة كشاشةٍ كبيرةٍ تعرض العديد من الحلقات..

فرحةٌ بمولودٍ ما كان منتظراً، وكيف تملّكت الجميع، رزق من الله كوابلٍ من غيث باكتفاءٍ حدّ الرضا، و دفءٌ لروحي لم أأملّ استجداءه من الله يوماً والكثير الكثير من الأمنيات وكل ذلك يتلاشى بإغماضةٍ.

أشعر بالغثيان، بتكاسلٍ انتشلتُ جسدي الضخم من السرير، أعددتُ قهوةً مثقلّةً بالمرارة أجْزِم أني لن أتذوقها، وعلى كرسي كأنه طفل الشرفة الرضيع ارتميت متهالكة، صداعٌ شديد الوطأة يمتطي رأسي ،اعتدت ضجيج سنابِك ألمه الصباحيّة ،والصمت يلف المكان.

الأولاد في المدرسة...

عدّلت من جلوسي واستندت إلى الحائط الرخامي أراقب زوجان من (الترّغَل) يبنيان عشّاً على شجرة الزيتون المقابلة..

فكـرةٌ جنونيـةٌ بـتُّ أمارسـها كلّـما توحـدت بـه في غفلـةٍ عـن البقيّـة، برشـاقةٍ أقـوم بتحسـس بريقـه في أحشائي وقتما يلمع كضياءٍ مع كل شهيق

تبسمت...

وأنـا ألاعبـه عـلى الحبـل الـسرّي، يتقافـز بشـغبٍ، أدندن له ليغشانا الغبش ونورق في النبضات..

ينصـت لنغـماتي المتعبـة فأهتـزّ مـن الفـرح ليعـاود شقاوة ركلاته، أردد الشعر له يتجمّد للانصات...

تتعالى ضحكاتي...

وتـشرق الحيـاة بأثوابهـا الأرجوانيـة مـن خلـف ركام الأيـام، غريـبٌ ذاك الإحسـاس الغامـر بالـدفء، غريـبٌ ذلـك الشـعور لكأنـه بكـر، صـوت رنـينٍ مفاجىءٍ من الداخل بإلحاحٍ، يمزّقَ ساعة خلوتنا

عـلى الجهـة المقابلـة سـيد رحلتـي يـدق هاجـس الأفكار

- ماذا تفعلان غاليتي؟

- أقرأ له الشعر وأغني

ويسقط اللحن لشهقة ضحكات...

- تباً...

ألا يكفيني شاعرةٌ واحدة ؟

سلامي لكما ريثما ينتهي الغناء

لا تجهدي روحك

سترتاحين قريباً

وفي صدىٰ الكلام

...يتردد

كل يومٍ وأنت حبيبتي

وداعاً حتىٰ المساء

ح3: تشبّث أكثر أيها العنيد

الليل يزداد عتمةً وصمتاً يراقص نجومه بتكاسلٍ

حينما تلّف الساعة ساق على ساقٍ لتعلن منتصف الوجع، تحكي لي عن زمنٍ يلهثُ بالمُضّي في غياهب القلب ولا يمضي

تتعلق نظراتي بعقاربها كما يتشبّث هو بأحشائي

الكلّ نيامٌ... ربما ذبُلت زهور انتظارهم

ثلاثة أيامٍ خلت بلياليها من وميض خلاصي

كنت أراقبهم...

يتسكعون بين الانقباضات يمزقون مشاهد استقباله ليرسموا لوحاتٍ جديدةٍ بألوانٍ أكثر فخامة، إقتراحاتٌ لأصناف الضيافة، ومشاوراتٌ لِما سيرتدون، واختنق حينما يتنازعون على اسمه... فابتعد متجاهلةً.

كانت تصلني ثرثراتهم عن تلك وتيك... فلان وفلانة ولا يكِفون إلاّ لفرض صلاةٍ مستعجلٍ، أو لمضغ خبزٍ مرٍ كطعم احتمالي...

وأنا في غفلةٍ عنهم..

ألوكُ وجعي راضيةً غير مرضيةً منزويةً إلى ركن قصي بما أحمله من بُشرى، أعانق أعمدة الغرف، أكمم بصدرها فاهي، وأرتجف حين ضعف.

خارت قِواي.. لم أعدّ أقوّى على الحَراك وهذا البطن المنفوخ كمنطاد سماءٍ.. يراود قهري فيزيدني التصاقاً بالسرير، اعتصم بتلابيب وسادةٍ مزركشةٍ بالأمل، أمضغ أطرافها خافيةً قلّة حيلتي بأنينٍ مخنوقٍ.

لا شعور بركلاته منذ العشاء لكأنه احتجاجٌ مبكرٌ منه ولعلي بطيشي أحزنته حين نهرته تعجلاً أكثر من مرةٍ أن يخرج لأرتاح.

صرير السرير أقضّ مضجع غفوة أمي، سألتني بصوتها المبحوح هل من جديد؟

كانت صرخةً يتيمةً مني كفيلةٌ بإشعال إنارة المنزل بأكمله.

وخروجهم دون أداء فرض صلاة فجرهم.

وبرفـة عـينٍ كانـت السـيارة ترتطـم بالاسـفلت كصفعـاتٍ مباغتـةٍ، علـى المـرآة الأماميـة لمحـتُ لهفـةً لذيـذة في عينيـه خـدّرت بعـض آلام المخـاض وأحالتنـي لطفلـةٍ تدّعـي الضعـف لتشتشـعر حبـه واهتمامه.

كانـت غرفـة العمليـات متخمـةٌ بالأجهـزة، كانـت أكثـر بـرودةً مـن كلـمات ممرضـةٍ ملطخـةٍ بالمساحيق كلوحـةٍ زيتيـةٍ رخيصـةٍ حاولـت بهـا طمأنتـي وهـي تصلني إلى مصلٍ ملحيٍّ

تـزداد الانقباضـات غيابـاً، ويـزداد تمزيقـي لمـلاءة السرير الخضراء غيظاً..

أمام الباب..

أطبـاءٌ يتبادلـون تحيـةً صباحيـةً مبتسـمين بتجاهـلٍ لحركـةٍ لا إراديـة منـي في إصـلاح غطـاء رأسي، بـرودةٌ مفاجئـةٌ تربصّـت بأطـرافي، دقـات قلبـي متعجلـة الخطى، وجهـاز موصـول إلى اصبعـي يطلـق صفيراً مزعجاً،

وحين وهنٍ ..

حلّقتُ فوق سحابةٍ نديةٍ، شواظٌ من لهيب يسري في ذراعي، وسرب من النمل يدغدغ أوردتي بإرتعاش وخدر يسرقانني إلى حلمٍ أزرقٍ.

تناهى إلى مسمعي

حركةٌ صاخبةٌ حولي، وصوتٌ يصرخ بإلحاحٍ

لن يخرج إلا كـ قيصر

فلنساعدهما



ح4: صخبٌ.. صخبٌ.. احتفالاتٌ على مدار الرّاحة

اقترب مني...

والعـرَقُ يتصبّـب مـن تقاسـيم وجهـه المتعـب معتذراً عن تأخره ساعةً..

رقّت له ابتساماتي ...

لا تهتمّ عزيزي وهمست في نفسي:

(لقـد تأخرنـا خمسـة عـشر عامـاً حتـى كاد الشـيب يغزو ملامح قهوتنا)

ارتحْ قليلاً ريثما يجهز الغداء..

وعـلى إرهاصـات الأواني بـات يصلنـي صخـبٌ مـن الطابـق العلـوي، وقـع أقـدام أعـرف أصحابهـا، ضجيـجٌ لذيـذٌ يداعبنـي، ودفءٌ يمـلأ أرجـاء المنـزل، حفـلاتٌ تقـام هنـا يوميـاً كلـما كان (يامـن) مسـتيقظاً لا تتناسـب مـع تنقلنـا عـلى رؤوس الأصابع حين غفوته

و هم هناك..

ما زالوا يعتقدونه دميةً أبدع الله تكوين جمالها

ليمرحوا بها..

يبدّلون له ثياباً نظيفةً ليتمتّعوا بجاذبيته المبهمة

الكلّ يدور حول فَلَكِ العزيز الصغير ...ألعابه..حاجياته..رضّاعاته الملوّنة لتتناسق مع أناقة ألوان غياراته ..دبابيس مصاصاته.. طعامه..وكل ما يخصّه..

شغلهم الشاغل

ثمانية أشهر مضت منذ دخلت به تلك الممرضة الملطّخة بالمساحيق غرفتي لأراه..

وأنا تائهة عنهم أحاول تمزيق ثوب حلم أزرق لأتعرّف عمن حولي بتردّدٍ وعطش، ابتلعتُ ريقاً مراً مؤلماً وضعت يداً على طرف السرير لأنهض..

ـ قلت: أليس أنفه بشعاً؟

ـ سيكون أجمل إخوته، قالت أمي:

وهي تطالبني بنظراتها أن أصمت أمام عمته وأبيه

ـ يبدو كأنه في شهره الرابع..

كم وزنه...؟.

موجهةً سؤالي للممرضة عينها..

ضحكت... (وأظهرت أسناناً مموّهةً بالاصفرار غير متناسقة ...ستة كيلوات ونصف)..

تبسمت مؤكدة شعوراً في روحي....

كان صامتاً كما لم نعتد خدّيجاً قبله.!!!.

ـ ألم يبكي؟

نفت سؤالي وصاحبته بقرصةٍ لأسفل قدمه المكشوفة .. بكى وملأ صوته المكان..

تأخرت صرخة ميلاده الأولى لساعاتٍ عن أقرانه

(كما سيتأخر عنهم دائماً في كل شيء)

كابرت .. وتجاهلت رغبةً بحمله، وأنا أراقبه يتنّقل بين أيديهم، يتفننون في تشبيه ملامحه لمن..

بكيت بفرح وقتما صمت منصتاً لآذانٍ سكبه أبوه في أذنه بتمهلٍ

مددت يدا مزرّقة متألمة أطالب بحقي به..

عانقته وشددته إلى جناحي وعاودت تحليقاً لذيذاً، نسيت من حولي.. لم تعدْ تصلني أحاديثهم المصطنعة، تماديت في توحدي به، كان إحساساً يستحق السجود

لم أصدق أنه غادر رحمي لبرهةٍ، كنت أغدق عليه قُبل النظرات دون كللٍ، وحينما فاض له لباءٌ خصّه الله به دون إخوته

صرخت... يا الله ما أكرمك!!

ومضت الأيام متسارعة الخطى بسعادة

كنت أغرقه بحناني حدّ استجلاب غيرة إخوته رغم عشقهم له، كنت من جهلي أضع أصابعه على شفاهي لأسمعه حروف اسمي، كم كنت أتمنى وأنتظر أن تكون (ماما) لفظته الأولى ...!.

كنت أراقب مناغاته

وأضحك حين رضاعته وقتما يتجاهلني بنظراته الباردة متلهيّاً يعبث بخصلةٍ من شعري تناثرت فوق وجهه الملائكي

كانت سرعة نموّه تتماشى مع طبعي العجول، تمنياتي أن يكبر بسرعةٍ لأسمع صوته هي دعاء يتكرر في كل صلاة

وكم كنت أستغرب عدم اهتمامه بالالتفات إليّ حين أناديه وهو يضاحك أطفالا يغنون ويرقصون على شاشة تلفازٍ اعتاد المكوث أمامه لساعاتٍ

كنت أراقبه حين يعانق بكفيه وركبتيه الأرض حابياً إلى صندوق مناديلٍ ورقيةٍ ليتفنّن في تمزيقها، وحين منعه يهوي بكل ضخامة جسمه إلى الحائط يضرب رأسه ويصرخ بهستيريا تكبّل صبري، وتُفحِمُ أمومتي

ولا تشبه بكاء اعتدته من إخوته

كنت أقول حينها: أفسده دلالنا، وبات يتحكم بنا كما يتشّهى، ولو شكوته لأبيه يبتسم بحبٍ كبيرٍ ويبارك له ما يفعل بنا من شقاوات

ـ دعيه..دعيه..

سيتعلم حين يكبر كما سابقاه

وفي لحظـة باغتتنـي كلدغـة عقـربٍ سـامةٍ انتشـلتني من نافذة ذكرياتٍ نديةٍ

وأعادتني إلى أصبع احترق بنار الموقد دون انتباه

سارعت إلى ماء باردة، أخفف من لهيب

استندت إلى حوض غسل الأطباق

غثيانٌ ودوارٌ ونفورٌ من رائحة طعام

ابتســامةٌ أخــرى غمــرت روحــي، والكثــير مــن أفــكارٍ ومشــاعرٍ مبهمــةُ التأويــل قلــت في نفــسي :يااااااااااال لرجالٍ.!.

ليس مجدداً

ح5: فطامي الأكبر

(1

تخدّرت مفاصل الوقت ولم يشتكي، مازال يهزُّ سرير النجوم لتنام، والقمر طفلٌ مدللٌ يشاغب هنا وهناك، يحاول إيقاظ يمامةٍ حالمةٍ تؤنّبه بهدهدتها، تطاله بمرحٍ، تخبئه تحت جناحها لسويعات....

يلملم الليل بقاياه يلتقي بالفجر عند بوابة الكون يصافحه ويمضي..

يسارع النور لنسج سجادةٍ فضيةٍ تليق باستقبال يوم جديد، تتمايل ياسمينات حديقتي على لحن الحضور، ترقص عطراً يتنفسه الصبح وأنا..

ما زلت صاحيةً...

لم يهتدِ النوم سبيلاً إلى وسادتي هذه الليلة، ربما تاه في أزقة التوجس والقلق.

وخزٌ مؤلمٌ يعتري صدري كلما استعدت تفاصيل حفلة البارحة

عيـد مولـده الأول.. لقـاءٌ عائـليٌ ضئيـلٌ لعـددٍ ممـن يجاورونـا بالسـكن مـن الأقـارب، ومائـدة لا تكلف بها كـ روحه..

(لم تكـنْ يومـاً البسـاطة إحـدىٰ طباعـي، لربـما آثـار الحمـل الجديـد ومـا صاحبهـا مـن غثيـانٍ ووهـنٍ قـد تكفلا بـ طقوسٍ مشابهةٍ)

(2

هـرجٌ ومـرجٌ يعُـمّا المـكان، يعيـدا في نُسـغ جدتـه المتيبّـس حيـاةً جديـدةً، تزهـر بهـا ابتسـاماتها رضـاً وسـعادةً، وتجِـدّ في قطـاف لحظـاتٍ شـهيةٍ مـن شـفاه حفيدةٍ لها زرعتها دفء حضنها الخصب

مناغـاة تلـك الجميلـة صفعـت أمومتـي بأصابـع مـن صحـوةٍ، كانـت لا تشـبه تلـك الأصـوات التـي يصدرهـا (يامـن) لتقليدنـا وقـت لعبنـا معـه ومناغاته..

كان يرفـرف فرحـاً كـ طائـر سُـمّن سـقط من عشـه وقتـما يـرّن للبـاب جـرسٌ يعلـم تمامـاً أن والـده خلفـه، ولـكأنّ لـه مـع الزمـان سـحر علاقـةٍ، كلٌّ بميعـادٍ.. نومـه، صحوتـه، أوقـات اغتسـاله، نزهتـه

اليومية بسيارة والده، حتى موعد زجاجة حليبه تلك التي حلّت محل لبائي إثر فطامه المبكر الذي لم يعترض له كما يفعل عادةً أقرانه، بصمته ونظراته الغامضة تلقى نأيي له عن ثديّ، برضاً أحزنني كمن كان ينتظرها حُجةً واهيةً لتجنّب إجباره النظر في عيني حين ارضاعه.

(3

تزداد حفلتهم صخباً، يجعلون منها وسيلةً لإبهاج المُسِنّة، ولم يكن في وسعي الاعتراض، وأنا أراقبه ينزوي في غرفته، مختبئاً هارباً من عالي صراخهم، غير أبهٍ لجديد ما يرتديه، ولا لطاولةٍ متخمةٍ بالهدايا، حتى تلك الشمعة التي توسطت قالب حلواه أخافه وهجها.

يتشبّث بغطائه المخملي كعادته.. رغم حر حزيران، يذرع الزوايا علّه يجد ضالته من كسرٍ أو تمزيقٍ لكل ما تطاله يداه الكبيرتان.

(بنيته القوية منذ ولادته وما بعد.. جعلت منه طفلاً ضخماً بوزن تسع عشرة كيلو غراماً، يمشي منذ شهر، ويبتسم بكامل أسنانه ماعدا النابات)

(4

كان دائم الإمساك بـ عصاً حمراءً كسرها ذات نوبة صراخ من لعبةٍ ولم تفارقه من يومها، يضرب بها كل ما يعترضه من أثاث وينصت مستكشفاً لـتردد أصواتها، وكلما رصدته يحاول العبث بشيءٍ يهرب مني ضاحكاً باحثاً عما يعبث به مجدداً لاعتقاده بأني ألاحقه وألاعبه، لا يهدأ ولا يتعب وإن دلّ تعرّقه الغزيز على ذلك لا يهتم براحةٍ ولو مؤقتةٍ، مردداً أصواتاً لا ترابط في لحنها.

تعبتُ من هرولتي خلفه ببطني المنفوخ وقدميّ المتورمتين، تمنيت أن يرد ذلك لي بـ نطق (ماما) لإسعادي ولـ إغاظة زوجي فلقد كرر له اسمه مراراً..

وكم كان ذكياً لمّاحاً وقتما راقبني عابساً وأنا أشكوه معترضةً على ضربه لرأسه بالحائط بلا سبب، رفض شكواي ورضّاعته من يدي معاً، تمسّكَ ببنطال أبيه يستحثّه بنظرة حزينةٍ على حمله لـ يقضي ليلته بقربه بعيداً عني.

تكوّم في حضنه وغفىٰ كـ ملاك لا تقوىٰ علىٰ نزع نظراتك من نوره، هانئاً تطيب له الأحلام تركني أعاني وحدي فطامه الأكبر..

5)

دقات ساعة الصالة أعادتني إلىٰ زمانها، أرتشف مرّ فنجاني البارد عنوةً مع تكتكاتها الستة، أراقب باباً، وأنتظر خطواتٍ سريعةٍ لابتسامةٍ أموت بها عشقاً.

ح6: متى ستهدأ أيها النشيط؟

(1

بليدةٌ هذه الليلة، بملل تمارس الوقت، لا تَعِدُ بصبحٍ قريبٍ مهما حاولتُ استغاثاتي

و أنا.... يعتريني قلقٌ بهواجسٍ تبالغ في تضخمها ليشتّد جلد بطنها بثلاثة أضعاف حجمه...

منتفخة الجسد والتفكير، لا أنفكُّ أُعيد مقارناتي بين تصرفات (يامن) و أقرانه من المعارف.

(2

لم أعهد أحداً منهم يقفز لساعاتٍ فوق السرير متعرقاً بلا تعب، يتناول طعامه فوق الملاءات، يجمع في منتصف الغرفة الوسائد ضاحكاً يقفز عليها مستمتعاً بصوت الارتطام، دائم الاستماع للأغنية عينها من هواتفنا النقّالة، يمسك بها رغم متابعته للتلفاز بصخبٍ مزدوجٍ..

حتى وقت نومه لابدّ أن تكون بجانبه تصدح وإلا استفاق يصرخ بهستيريا مزعجةٍ اشتكى منها الجيران مراراً.

كان يعشـق اللعـب بالمـاء بـلا تراشـق، و يطفـو سـابحاً في مغطـس الحـمام، مرتجفـاً بهلـع لـو وضِـع الصابـون عـلى رأسـه، كمـن يغـرق تَـراه وقتـما أصـبُّ المـاء عـلى وجهـه فيسـارع لشـهقةٍ كبـيرةٍ تعيـد الحياة للونه المُزرق خُيل له أنني أنتزعتها منه.

كان يفـترش أرض المَحـال التجاريـة صارخـاً باكيـاً ضاغطـاً عـلى مرافقـه لإحراجـه في شراء سـيارةٍ اعتـاد جلبهـا يوميـاً إلى المنـزل، إمـا متحطمـةً في طريـق العـودة أو منزوعـة الإطـارات ليضعهـا مصطفّـةً بنظامٍ منظمٍ مرتبٍ على حافة السرير.

إضافـةً لمئـات القطـع مـن المكعبـات الملونـة مكومـةً في زاويـة الغرفـة لا يسـمح لي بتعبئتهـا في سـلالها معترضاً ببكائه أو بضرب وجهه كما اعتاد.

و لأنشد بعض راحةٍ جافتني مؤخراً

كنـت أطلـب مـن إخوتـه وضعـه في حضنهـم عـلى الحاسـوب علّـه يتوقـف قليـلاً عـن القفـز والركـض، كان يتابع لعبهم ضاحكاً... إلى أن افتقدته ذات صباحٍ

ولم أجـده بجانبـي خرجـت محاولـةً الاسراع رغـم صعوبة وضعي

لأجده واقفاً على كرسي الحاسوب يلعب بمهارةٍ تفوق اخوته، استندت إلى الجدار مذهولةً بقدرات ذو الثمانية عشر شهراً، كيف شَغله؟

و كيف اجتاز البرامج للوصول للعبته؟

وقلت في نفسي هناك خطب ما

لكن يا ترى ما هو؟

شاورت من يكبرنني تقول جدته أبوه يفوقه صخباً وقتما كان بعمره، دعيه يتدلّل علينا، فما زال صغيراً ....

أمي كانت تستحثّني دوماً لمشاورة طبيب، ربما ماكان يفعله في بيتها خلال زياراتي النادرة لها نبهها لما غفلت أنا عنه، و لربما آخر أيام الحمل المزعجة قد ثبطت من همتي. رغم شعوري بغرابة وغموض ما يحدث!!!

(3

لطالما كنت منزعجةً لتجاهله نداء اسمه إلاّ إن ترافق برضّاعته أو طعامه المفضل (وهو ضئيل الاختيارات، نخبوي الأصناف)

راكضاً يهرع ملبياً اهتزاز يدي متجاهلاً النظر في عيني مباشرةً، مردداً أصواته التي باتت تتشابك بلا توقف (الرّطن)

في مشاغباته ذكاءٌ لا يُنكر يقلّد حركاتنا، يسارع للحصول على ما مُنِع عنه من أشياء، متلذذاً بإنهاكي وأخته في ترتيب فوضاه،حتى اشترى له والده مازحاً خفاً يُصدر زقزقةً حين المشي، الأمور بخير طالما نستمع لصوت خطواته، ونتبادل النظرات حين سكونه ياترى دور مَن في انقاذ التُحف منه؟

(والتي لم ينجُ منها إلا طويل الأعمار)

4)

كلُّ ما كان هو بداية انزوائي به في المنزل هاربةً من نظرات الاخرين المتسائلة وعباراتهم المحرجة، خشية التصادم معهم في نقاش لا مفرّ منه (وأنا السليطة) رغم معرفتي جيداً بأنّ في حديثهم بعض صِحةٍ، إلا أنها غريزة الأمومة من لا تعترف بما يخص طفلها بسهولةٍ.

5)

نسماتٌ تسرّبت من شقِّ النافذة، فارتعشت ليس من برد، أعانقني في محاولةٍ لطمأنة ضجيج حدسٍ صاخبٍ

فتلك الدوامة تكاد تفتك باتزاني

لمن سأتركه غداً؟

لا أثق بخدمته إلا بي

كيف سأتجه للمشفى كي أعود بأخيه؟

من تراه سيحتمل هذا الـ (يامن)

أسئلةٌ تستجلب سحائب هطولي، يلين لها قلب الليل، يحثُّ أولى خطاه للمغادرة، فيمزق قميص عتمته سامحاً للنور بمرورٍ، يتعالى صوت كلام الله بخشوعٍ

أهرع إلى الماء، أبرّد به سعير روحٍ مشتعلةٍ

على كرسيٍ بإتجاه القِبلة أجلس

أُكثر من صلاةٍ بلا سجود، إلى الله أتذلل فرجاً قريباً يمنُّ به عليّ ويجبر خاطراً خذلته الأيام

ح7: صراخ الروح..

1)

عندما انطلقت بنا السيارة على الطريق الترابيّ مثيرةً عاصفةً من الغبار، توارت وراءها معالم القرية،وكل تفاصيلها.. بيوتها.. أشجارها..

حتّى رائحة التراب المبّلل بماء النهر انتزعتُ منه شهقةً عميقةً قبل أن يتلاشى.

لم أتوقفْ عن توجيه التوصيات لابنتي منذ استيقاظها، وما زالت تجلس بجانبي تهزُّ رأسها بابتسامتها الماكرة موافقةً رغم تكراري...

كأنها تقول لي: أنا أبرع منك !

وقتما كان (يامن) في حضني أشدّه وأخوه معاً، علّ روحي تحظى ببعض دفء.

اختناقٌ يستولي على حنجرتي يترافق بارتجافٍ، لم يكنْ مصدرهما الثلج المتساقط خارجاً منذ يومان بلا راحةٍ، إنها صبيحة الميلاد .

كشبحٍ تخترق سيارتنا عريض شوارع المدينة.

أشـــجار الـــسرو المزيّنـــة مـــا زالـــت مضـــاءةً في الساحات، والهدوء يلفُّ العاصمة

فالأغلبية متعبون بعد ليلةٍ عامرةٍ بالسهرات.

2)

أمـــام منـــزل عائلتـــي توقفنـــا، بدمعـــةٍ وتمتـــماتِ تنبيهـاتٍ مسـتهلكةٍ انتزعتـه مـن روحـي ليـدٍ توازينـي له عشقاً

- انتبه للجليد

وأخبرهم أن يعتنوا به جيداً.

نطقتها متوسلةً...

دقائـــق ... ورأيتهـــا تتأبـــط ذراعـــه، تتقـــدم نحونـــا حـــذرةً لتجلـــس عـــلى المقعـــد الأمامـــي مُلقيـــةً تحيتهـــا الصباحية بتعبٍ

- ما بك يا ابنتي؟

كلهم يحبونه.

وما هي إلا بضع ساعات فتصبّري.

وتصبّرت بحارق الدمع...

3)

كـرسيٌ مدولـبٌ عـلى بـاب المستشـفى الفخـم كان بانتظاري، رفضته بحركةٍ من يدي

وحشـت الخطـى متجـاوزةً مكتـب الاسـتقبال إلى غرفـةٍ أشـار عليهـا الموظـف، بدّلـت ملابـسي بزيّهـم الزهري على عجالةٍ

فـوق حافـة السريـر جلسـت لهنيهـةٍ يلتهمنـي الحنـين والتعـب والشـوق معـاً. وأمضـغ عقـارب السـاعة بنظراتي

4)

هدئـيْ مـن روعـك، وريـدك يرفـض أبـرة المصـل للمرة الثالثة.

- تقـول ممرضـةٌ شـابةٌ بهيّـة الطلعـة، رقّـت لهـا ابتساماتي أو تحسبينني خائفةً ؟

بـدأ الطاقـم الطبّـي يدخـل الغرفـة البـاردة تباعـاً، مـن أصـوات أجهـزةٍ متعـددةٍ موصولـة بذراعـيّ يحركون رؤوسهم .. الأمور بخير.

ضوءٌ ساطعٌ أشرق فوقي

ترافق مع اصطفافهم حول الطاولة المستطيلة بلباسهم وأقنعتهم الزرقاء، ارتعشتُ لرؤية ثلاث مجموعاتٍ من الأدوات الطبية والمشارط، وبحرقة خدرٍ شلّت حركة أصابعي شعرت بعد حقنها في أنبوب المصل الملحيّ.

وما هي إلا ثوانٍ لم أتجاوز العدد سبعة عدّاً

كنت أحتجب خلف سحابةٍ زرقاءٍ نديةٍ بلا أحلام لساعتين ونصف.

(5

أحسست بارتطامي بالسرير بصعوبةٍ أُجاهد للتعرف على من حولي..!

أصواتهم تصلني وما زالوا خلف غشاوةٍ رماديةٍ تلفُّ صحوتي، ابتسمت من ألمٍ لصوته الباكي بلا توقف.

يتلقى تكبيراتٍ في أذنه أعلم نبرةً صاحبها.

بنصف عينٍ مغمضةٍ رأيته.

يا لجماله...!

كمصباحٍ من نورٍ يفوق لُفافته بياضاً ونقاءً

و عدت لأتابع نوماً متألماً تحشده آهاتٍ من ألم.

(6

جراح التجميل وطبيبتي يدخلان معاً للاطمئنان بعد ساعاتٍ ما شعرت بمرورها، يلقيان نظرةً فاحصةً على جرحٍ يمتد لنصف جسمي مغلفاً بالشاش واللاصق

يتبادلان أحاديثاً جانبيةً مع الممرضة المناوبة والموجودين، وغادروا مباركين.

.. كنت وقتها لا أحتاج لكلماتٍ، كلّ ما بيّ يتساءل هل (يامن) بخير؟

وعلى الجهة المواربة للمكالمة سمعت صراخه

صعد قلبي ونزل مراراً على سلم الأمومة الموسيقي حتى كاد يتعثر بنبضاته .

وهمست لأبيه: أحضروه.

(7

(يمان) يغفو في سريره الزجاجي بعدما أرّق مساء البناء بأسره، (و كما سيبقى دوماً يعبر عن وجوده بالبكاء)

و(يامن) يتوسّد ذراعي الملطّخ بالازرقاق، يحمل هاتفي النقّال، لم أشتكِ من صخب لعبته رغم صداعي

أسكتني شعوري باسترجاعه، بحركةٍ لا إراديةٍ عرضت عليه ثديّ، كنت أتمنى أن أردّه ثانيةً، أن أرضعه هو أولاً

رفضه بعصبيةٍ انقبض منها صدري، وأكمل حليب زجاجته، ما زلت أؤنب نفسي لفطامه المبكر.

على السرير الآخر والده يصارع وسادةً لا ترضيه أحلامها

وعند أقدامي تغفو أخته بعدما سردت تفاصيل كرنفال زيارتها، وكم كان مشاغبا ومشاكساً غريباً ...!

أعتقدهم تنفسوا الصعداء حين مغادرته.

كان يوماً شاقاً للجميع.

وليلةٍ قضيتها أعتني بالصغيرين وحدي بعد تجاهل الممرضات لزر نداءاتي.

(8

صغيراي الجميلان.

لم يكونا صدفةً كانا قدري الحالم، وآلاف من الحكايات التي تنتظر أن تُروىٰ .

الكبير سيبقىٰ طفلاً مهما كبر ...

الصغير خُلق رجلاً قبل ولادته ليعتني به.

يمان يا ولدي..!.

ستقرأ روايتي لأخيك يوماً

لا فرق وقتها تحت التراب أم فوقه أكون

ما يهمني فعلاً هو غفرانك لي...!

فلم أكنّ تلك الأم المثاليّة لك، لم تحظَ بكفايةٍ من حناني و رعايتي

لم أفرح بكلمة .. ماما.. منك

بكيت وقتها عدة ليالٍ كنت أنتظرها من سواك.

كم حضنت (يامن) وبكيت !.

وأنت تطالب بي وتجاهلتك
كم عاقبتك بلا ذنب يستحق..!
وتجاوزت زلاّته
كم ألبستك قديمه وابتعت له الجديد
وكم... وكم...!
تحيزّت للأضعف منكما
والأكثر توهاً
رغم يقيني باجحاف ما أفعل
أنا أمك ...
فسامحني

ح8: انعتاق من الله حين ضعف

1)

انتظرت و انتظرت أن يمزّق رنين الهاتف المفاجئ سكون الغرفة، لينتشلني من ضجيج أفكارٍ و صخب أسئلةٍ تلهب عقلي وترغمني على الهذيان في قمة صحوتي، بلا إجابات أمتلكها تخفف حرارة جبين أمنياتي.

2)

لطالما كان التفكير بهذا اليوم هاجسي لاصطحابه لطبيبٍ عصبي علّه يهديني سبيلاً للتعامل والتفاهمِ بلغتنا التي لا يمتلك منها سوى بضع كليمات مبعثرة الحروف لا تُفهمُ ولا تُغنِي عن تفسير (الرطن).

يبدو أنني فعلاً منهكة الجسد وبحاجة للمساعدة هكذا شعرت فالاعتناء بطفلٍ حديث الولادة لا يكفّ عن البكاء على مدار السّاعة إلاّ لماماً رافضاً كلِ ما أعرفه من وسائل لإرضاعه وإسكاته، مكتفياً ببعض أعشابٍ وماء.

وآخر لا يتوقف عن العبث بكل ما تطاوله يداه، يقفز ويتعرّق، يبكي بهستيريا ويعاود نطح رأسه بالحائط، ينزوي بالتلفاز والجوال في غرفته لا علاقة له بأحدٍ إلا إذا احتاج طعاماً والذي بات أكثر شراهةً به

كل ما سلف صعّب عليّ تحمله رغم مساعدة الجميع وقت تواجدهم.

على الجهة المقابلة للرنين

ـ مستعدون انتظركم خارجا

استغرب البارحة مني وقتما ناشدته اصطحابي للطبيب لم يعتدْ مني طلباً مماثلاً، لطالما كنت أدبّر هكذا أمور وحدي دون إزعاجه بصحبة السائق، ولم يكن يعلم دوماً بمرضهم لانشغاله بالعمل وسفره الدائم، لكن هذه المرة خائفة أنا ولو لم أبحْ، ترتجف أمومتي من حدسٍ تفقه كهن صدقه وتكابر أمام الناس

رقّت لي نظراته..

لا ضيّر غاليتي هذان الشقيّان قضيّا عليك فاعترفي وضحك.

صـوت مكابـح لطيفـة أعـادني إلى حيـث وجهتنـا، انتزعنـي مـن براثـن خيـال تطحـن أضراسـه اللحظـة، العيـادة مكتظـةً، ارتعـدت فرائـصي مـن أولاد تبـدو اضطراباتهـم جليّـةً أراهـم للمـرة الأولى عن كثب.

ويامـن يتجـول بـين الغـرف يبحـث عـن لا شيء محرجـاً أبـاه وأنـا ممـا اضطرنـا لإخراجـه للشـارع ريثما يحين موعده.

حاولـت التماسـك ومراقبتـه يـركل ويـصرخ مسـجوناً في حضـن والـده عـلى كـرسي التخطيـط الكهربائـي وُضعـت لـه قبعـةٌ جلديـةٌ موصولـةٌ إلى أسـلاكٍ ملونـةٍ تنتهـي بجهـازٍ يصـدر تكتـكاتٍ تتلاشـى شـدتها أمـام بكائـه ورفضـه للوضـع برمته.

- خذه إلى السيارة سأتبعك.

حملـت الرضيـع وتبعـت خطـوات أنفـاس الطبيـب البطيئـة لغرفتـه، كانـت قطعـة مـن جنـةٍ خـضراءٍ نـضرةٍ تعانقهـا شـمسٌ خجولـةٌ تسرّبـت مـن شـباكٍ بعيـدٍ حيـث جلـس مترهـل القـوام فـوق كـرسيٍ يئـن من ثقله.

لم يكن شكله يتماشى مع ما يحيط به من جمالٍ ورِقةٍ .

تتفصد أصابعي وجبهتي عرقاً مزعجاً، ليحتقن وجهي ليس من خجل، كال لي استفسارات تلعثمت في إجاباتها كطفلة، قال لي:

- لديه نقصٌ في أكسجين دماغه، وعلامات لفرط النشاط واضحة.

فقدت كل أنفاسي، ارتخت جميع المفاصل، وبجهدٍ حثيث استطعت الارتماء على كرسيٍ مجاورٍ دون أن يقع الرضيع من ذراعيّ.

- يلزمه سنواتٌ من العمل والأدوية.

- لا يهم مستعدة، سأقوم بكل ما يتوجب.

هل سيشفى؟

بارتجافٍ وحرقةِ لهفةٍ

- لو أهملته سيكبر.

سيدخل على ابنة الجيران يعتدي عليها ولا يحاسبه قانونٌ ولا عُرف فلا إدراك لديه.

دوارٌ ونسيمٌ باردٌ سرى بي، مقرفةٌ كانت رائحة السجادة الرطبة، يتناهى لي صراخ (يمان) والممرضة ولا اكترث، لا أشتّم سوى رائحة الكحول.

افتعلت إغماضا واغضاضة وكتمت أنيناً كي لا أحضر قداس نحيبه، تتساقط له دموعا ما ذرفها يوم مات والده الشيخ ويكتم استنشاقه أنفه بظاهر كف

الصغيران مثبتان إلى كرسيهما في المقعد الخلفي يعتقدونها نزهة كالعادة.

بلا إدراك.. بلا إدراك.. بلا إدراك.

ويرتد الصدى وجعاً في دهاليز البصر، لم تجرؤ الصغيرة على سؤالي، اكتفت باحمرار عيناي والأنف، مسارعة للاعتناء بأحبتها.

تنبّه لخشيتي من محاولة الدّرج صعوداً، أشار بيده إلى الحمام الأرضيّ ثيابك متسخة اغتسلي، لا علم لي كم من الوقت مضى عليّ أتأمل انعكاس صورتي على المرآة كمدفأةٍ منثورة الرماد، ملطخ بالمساحيق على غير عاداته الأنيقة، كم هرمت في ساعات.

تلمست مقامط التجميل ما زالت تزعجني بقوة ضغطها على جسدي، وما حاجتي للحياة..

صغيري بلا إدراك

وكأن يدي بصلابة صخر أخذت بها مقصاً يهذب به شاربه أحياناً من على أحد الرفوف، أقصّ بلا مبالاةٍ، وأملأ الحوض من غواية شعر

أخفيت بهي لونه بالأسود وخرجت.

صدمتان في ذات اليوم كان سيداً في تقبلهما، لنغدو فجأة كلنا أولاده، يحنو.. يطبطب.. ويتمتم بالدعاء..

لم أعهد ضعفاً مماثلاً، بكيت ما فاتني من سنوات، يتعاقب عليّ هو و ابنه يعرضان صدرهما للحنان.

وبات السؤال المُلِحُّ..

لماذا أنا؟

ولم هو؟

وما ذنبه؟

فلو كان...

لماذا من يدفع أقساط جهلنا هو؟

تقمصني إحساس بقلة الإيمان، هجرت السجادة وقبلتها لإجحاف عطاء، هجراً زاد قسوة قلب، هجراً حصد باقي البياض، وعلى منصة محكمة نفسٍ واظبت الحساب.

هل بعض ترهات نميمةٍ تصاحب قهوة الصباح كان ذنبي؟

هل ظلمي لوالدته المسنّة أحيانا كان؟

ربما ذكرتني في ظهر غيبها بدعوةٍ مستجابة.

أكان حبي المفتعل للظهور على الناس كان؟

لا استحق هكذا عقاب..

وبمنتهى لوعةٍ لا تعرف الخنوع رفعت وجهي لجلاله

وخاطبته بحنق.. حزينةٌ أنا يا الله..

نهايتي قد لا تنتظر ملاك موتك

ح9: متى سيتوقف الشك

الليل يهُشّ ساعاته بعصاً من شكوكي، لم أشتكِ وجعاً، ولن أتذمرّ أنيناً، بات الأقرب إلى النفس بعد انزوائي به و معه عن الجميع.

ما عدت قادرة على احتمال سهام نظراتهم الموجهة إليّ بتعاطفٍ مزيفٍ، و أنا من كانت تهتّز الأرض لها أمامهم إن مررت.

لم أعدْ أتجرّأ على تجاهل الحِشري من تساؤلاتهم بعدما كُشف الخِمار عن وجه الحقيقة.

وبات جليّاً قهري

أين لي الآن بشجاعةٍ لأنكر كما السابق؟

أنّى لي بقوةٍ تمنعني من الارتماء في حضن أحداهن باكيةً شاكيةً كلما ترددت عبارة -بلا إدراك- وأنا الصُلبة الجسُور.

شائكٌ ملمس الحقيقة، جاف الأمنيات، صبّاري اللهجة، شديد المرارة.

يتشابه وفنجاني الذي لم تعدْ تنضب قهوته وقتما يتراقص عبقه على مسرح سحابةٍ رماديةٍ خلفَتها

لفافتي الكريهة بعدما التجأت لها لأتناسى بعض واقع.

تضيق الغرفة بي على وسعها، أختنق من لون الستائر، وتستهلك الجدران كل الهواء.

متكاسلةً إلى نافذة تطل على الحديقة أتوجه، أنشدُ بعض حياة.

أتنفس والفجر شهيقاً واحداً، صوت آذانٍ شجّيٍ فقد تأثيره في ارتجافي، لم يعدْ يسيطر على روحي كما السابق، كنت أعلم باقترافي معصية.

فما زلت هاجرةً غاضبةً حتى بعد مضي شهوراً على نكبتي (فلا تحاسبوني)

لا قدرة لي للمثول بين يديه سبحانه، ولست متوجهة بكاملي إليه، ربما كان إحساساً بالخزي لوابل عتابي المستمر على مدار الساعة، يضاف إليهما قهراً لكأنه نبذني من رحمته فجأة.

صريرٌ معروف، وقع خطواتٍ، سعالٌ صباحي متشابكٌ كالعادة، يلقي بي من تحليقي لأرتطم مجدداً بالوقت، بإشارةٍ من يده وحركة رأسٍ خفيفةٍ كانت تحيتي.

ارتشفَ من فنجاني واهتزّ لمذاقه

لم ينتظرْ خروجه من الحمام متوضئاً لينصحني كما كل يوم، فتح خزائن مفرداته مُلقياً أعلاها في وجهي

مؤنباً، غاضباً، من سهري ورفضي مشاركته صلواته بمكابرةٍ وعندٍ فارغين..

لأزداد قسوةً وغِلاً عليه..

أنا أتوقع ذنوبي، يا ترىٰ ذنوبه ما هي؟؟

و أنا من لا أعلم عنه شيئاً خارج مملكتي أينا من يخصه هذا العقاب؟

لا تطوراً ملحوظاً علىٰ (يامن)

كنت هكذا أُحدث نفسي كلما تابعت تطوره منذ بداية العلاج، لم أُقصّر في موعد دواء، ولا في خدمته، كما لم أحصدْ لديه بوادر أدنىٰ تحسن كنت أتمناها، لعلمي بفعالية الدواء العصبي.. (الديباكين).. (والذي كان بسبب خطأ في التشخيص الطبي لم يكن يلزمه، فلا شحنات كهربائية زائدة لديه، ولا نوبات صرع كبرىٰ أو صغرىٰ)

و ستة أنواع من المعادن والفيتامينات تدخل جسده لثلاثة مراتٍ يومياً بلا جدوى، يتجه نزولاً في سلوكياته وتفاعله مع المحيط، وصعوداً بطبعه العنيد ووزنه وشراهته للطعام، ..

يا لكل هذا التيه والغموض الذي يلف تفكيري والروح..

على طاولة الإفطار ما زال (يامن) يجلس مرغماً على كرسي بجانب أخته تطعمه أرزاً ولبناً كالعادة بيدها.

كنت استغرب قدرته الفائقة على استعمال الحاسوب بمهارةٍ وعدم تمكنه من الإمساك بملعقة وعلى كرسيٍ خاصٍ بالطعام.

(يمان) ذو الستة أشهرٍ يأكل البسكويت والفاكهة المهروسة بشهيةٍ.

لم أتعمدّ المقارنة لكنها ترصدات أحداث تجيدها الأم وقتما يتقارب العمر بين صغيريها..

أرى الرضيع يزداد التصاقاً بنا، يضاحكنا، يقلّد حركات الشفاه، يتواصل بصرياً مع محدثه، يهلل لاسمه إن سمعه.

وتتسع فجوة انزواء (يامن) عنا، لا يضحك إلا لرسومه الكرتونية على التلفاز، يتعمد تجاهل اسمه ونداءاتنا، رغم يقيني بأنه يعي كل ما يدور حوله من أحداثٍ وأحاديث بنظراته الساكنة المتجاهلة، (يمان) بدأت مناغاته.

وأنا يشتّد خوفي وأدعو الله أن لا يسبق أخوه بالكلام

كم أنا أم سيئة....!

أما (يامن) ما زال يردد .. رطنه.. المعتاد بلا هوادةٍ أو كللٍ

لكأنّ هناك شخصا لا يراه سواه يكتفي به، يحادثه وحده، لكن ليس بلغتنا

الزيارة الدورية للطبيب تستحضر معها كل كواليس الألم، ذات التخطيط، ذات الدواء مع ارتفاع الجرعات، لم يعد كلامه المخدر ووعوده بالتحسن تؤتي مفعولها.. فخوفي في تعملق.

تزداد مزاجية (يامن) المفرطة، يضربُ بها وتراً حساساً لمن حوله، يستغل الجميع كما يهوى، يشتّم نقطة ضعفنا بدهاءٍ، كان الأذكى..

له قدرة على جعلنا ندور حول فلك رغباته، ببعض مبادراتٍ ضئيلةٍ منه ننتظرها نحن بلهفة عيد.

في مسايرته ودلاله، كنا نرتكب جسيم الأخطاء إذ نسمح له ببناء شخصيته الصلبة، والتي لن يكون اطواعها للتأهيل السلوكي سهلا لاحقا.

من الغرفة المقابلة تنبّهت لضحكاتٍ وقهقهاتٍ حدّ الشهقة، كنت أتوقعها منذ أيام غاصت منها روحي في جُب حالك التفكير، أتعرق و أرتجف، تابعت ترتيبي لفوضى الـ(يامن)..

كالعادة ..

منشغلةً عما يحدث خارجاً، فتح الباب فجأة، صغيرتي تحمل أخاها الرضيع بسعادةٍ، تلقنّه كلمة: ماما.. فيكررها ضاحكاً لانجازه ناظراً إليّ، وأنا أنظر إلى يامن

... من أنا لأحتمل هكذا موقف؟

يا الله

..عانقتهما معاً

قبلته بشفاهٍ بللّها حارق الحزن

تجاهلتُ ذراعاه الصغيرتان الممدوتان إليّ

وهمستُ في أذنها بتوسل

... أن خذيه.

آل حرفي..

أقسم كنت الأصدق في عرض واقع ما زال يدمرني كلما تذكرته

ولو أردتني بطلة لفعلت فالقلم طوع يساري..

فلا تحاسبوني

وانتظروا باقي التفاصيل عندما تتجلى العبرة من كل ذلك.

ح10: من أنت أيها التوحد

1)

أحاول أن أكتم أنيناً طال في أعماقي، أن أخفي حزناً يفضحني حتى حين صمت ولا ينضب، أن أدفن أفكاراً تجتاح كلّ كياني شنقتها ذات غفلة، أحاول أن أحطم أسوار الوجع من غير دموع، أن أبقى شامخة بعدما تكفلّ الزمن بدّك دعائم القوة، أحاول أن أستخير قمر ليلتي سبيلاً للنجاة، فإذ به يبالغ في التهرب والاختباء خلف بقايا سحب تناثرت فوق جيد ليله الداكن

أحاول وأحاول..

فلا أجدني إلاّ على ذات الأريكة، أعبُّ قهوة بلا سكر يختلط مذاقها برائحة لفافتي الكريهة، نافثة من صدري ناراً لا تحرق ولا تشعل للأمل شموعاً.

2)

ثلاثة أشهرٍ مضتْ منذ ناداني الصغير (ماما)، وانفرط عقدُ حروفه بعدها، بات شهي الحضور، ممتع الحديث..

يتداولونـه فيـما بينهـم حـدّ شـهقاتٍ دامعـةٍ مـن الضحـك، غمـر المنـزل بابتسـاماته.. لمعـان نظراتـه الذكيـة، جمالـه الملفـت مـا جعلـه يسـتحوذ عـلى الأضواء وجلّ الاهتمام.

لربـما وجـدوا بـه ومعـه أخـيراً مـا ملّـوا انتظـاره مـن (يامن)

و كأنـه عوضهـم عـما اختـبروه مـن حـزنٍ سـابقٍ وما زال...

كان قلبي يقفز غبطة كلما لمحت (يمان)

يتقـرب مـن أخيـه مشاكسـاً جاعـلاً إيـاه يتخـلى عـن وحدته

منطلقـاً وراءه ليسـتعيد مـا خطفـه مـن ألعابـه، كان الوحيـد القـادر عـلى لفـت نظـر (يامـن) للعـالم خـارج قوقعتـه، كان الوحيـد الـذي يفهـم مـا يفكـر به أخوه رغم صغر سنه...!!

(3

بقلـبٍ ينـزف اختـلاط اكسـيرا فـرح وألم، مـن روح تشـتعلُ بوجـع وتنطفـئ مـن سـعادةٍ، بلسّـانٍ يرتـلُ دعوات شفاءٍ وعبارت شاكرة

- يمان... يا ولدي!!

يوم علمت بقدومك بكيت لا من سرور، خفت انشغالاً بك عنه، حزنت لفطامه المبكر، اشتكيت مشقّة حملك ولم اشتكِ لهاثي وراءه طوال الوقت، يالجهلي!!!!

ويالعظمة مدّبر الكون، وحسن تصاريفه، ما أدراني وقتها بأنك ستغدو شريكي في اخراج يامن من عزلته؟

ومساعدي على دمجه بالمحيط، واستاذه في النطق والمشاغبة، معجزةٌ صغيرةٌ تخصني..

كما هي عادة معجزات الله، صغيرة في أسبابها...

عظيمة في قدراتها...

و ما زلت منشغلة التفكير حتى اللحظة، حثيثة البحث عن سرها.

4)

لا أنكر أني تمنيت لو سبق (يامن) أخاه في الكلام، كما لا يمكن نكران جو السعادة الذي خيّم على المنزل بعد زمن لاهث بالحزن

كما سعادتنا الواضحة بما لقنه لأخيه من كلمات بات يستعملها كلما طلبنا منه ذلك كـ(ماما) و(باي)

لكن..!

مازال هناك تراجع واضح ونقص شديد في مستوى وعي (يامن) عن أقرانه وحتى من يصغروه!

وبشجاعة قررت استشارة أطباءٍ جدد، انعدمت قناعتي تماماً بطبيبه الحالي وكلامه المخدر، ووعوده الكاذبة.

(5

الشمس تلسع الظهيرة بسياط من لهيب، الناس يسارعون إلى ظلٍ أو فيءٍ مصطنع، يتفصّد العرق بقعاً من أجسادهم تظهر على خفيف الملابس، وتجهماً على وجوهٍ أنهكتها صفعات الحر.

تقطع السيّارة شوارع العاصمة بثقة سلحفاةٍ و إصرارها، فالازدحام شديد الوطأة في هذا الوقت من النهار..

غارقـان نحـن بأفكارنـا المالحـة، ينـزّ العَـرق مـن أكفنـا وتزيـغ منـا النظـرات، في المقعـد الخلفـي ينـام الصغـيران كالعـادة براحـة تحـت رحمـة جهـاز التبريـد، اضغـطُ زراً مـا لعـل بعـض النغـمات تشـوش ضجيـج داخلنـا المزعـج، تنسـاب ألحانـاً شديدة الشجن نسيت اسم صاحبتها..

لكنـي أذكـر نظـرات زوجـي نحـوي وقتهـا، غمـز لي بطرفه وقال: وراءك.. وراءك.

6)

العيـادة مكتظـة كـما العـالم خارجـاً، وفـرّت عليهـما مشّـقة الزحـام والحـر، حملـت (يامـن) و دخلـت وحدي..

مـا زال نائـماً مستسـلماً بـين ذراعـيّ، بـدأ يتململ مـن تغـير الجـو عليـه، همسـت لسـكرتيرة ضئيلـة الجسـد.. داكنـة البـشرة.. شـاحبة مـن تعـب.. باسـمه، كنـت قـد أبلغتهـا هاتفيـاً بعـدم قـدرتي عـلى الانتظار

شكرت لها تعاونها

واتبّعت اتجاهاً أشارت إليه بيدها..

الطبيب خلف طاولته الفخمة، يتأرجح على كرسيه الوثير، ينشغل عن رد التحية بقلم ينقّله بين أصبعيه، جلست دونما إذن، منهكة أنا حتى قبل الولوج بحديث.

بات يُتبعني السؤال تلو الآخر، مركزاً ثاقبة نظراته إلى استفاقة الصغير مراقباً حركاته المعترضة، حجزي إياه في حضني كي لا يعبث بمقتنيات الغرفة.

- دعيهُ.. قالها بهدوء جازم

فتحت له قضبان قفصه الوهمي، وأعنته على الوقوف، انطلق كمن سمع صفارة بداية السباق، يتنقّل بين اللعب، يرمي بعضها على الأرض ويجمع مايصادفه من سيارات.

تتعاقب جميع الألوان على وجهي ويتفوق الأحمر، ابتسم لي بطيبةٍ مخففاً بعض توتري.

- أريد أن أرى سلوكياته عن كثب.. فلا تهتمي..!

و كأن الصغير كان يعلم نوايا طبيبه لم يوفرْ شيئاً..

مشاغباته، حركاته، رطنه، وحتى كسر إحدى اللعب.

- اعيديه إلى حضنك الآن.

- كتشخيصٍ أولي يظهر جلياً اضطرابٌ توحديٌ سلوكيٌ مع عجزٍ واضحٍ بأطيافه الخمسة

بعد رصدي لتصرفاته هنا وأقوالك عن هناك

...فقدت مفرداتي ولغتي، تسمّرت نظراتي في وجهه، وخارت قواي، لأول مرة أسمع بهذا (التوحد)، رصد ما يعتريني من توهان وهو الخبير..

قال: اضطراب سلوكي في أحد مراكز الدماغ الخاصة بالتخاطب، يرجح إلى خلل جيني غير مؤكد بعد يصيب الخلايا أثناء انقسامها في الرحم، ربما لصلة القرابة دور به، وربما لأدوية استعملتها في فترة حمله، وهناك الكثير من هذه التي تسمى ربما.

لا أسباب دامغة له ما زال العلم يخمّن.

- هل سيتحسن ويشفى؟

هو سؤالي الأهم طالما لا أفقه ما يردده منذ وقت.؟

ـ يحتاج بعض أدوية لمساعدته على تخفيف فرط نشاطه ليتسنى له التركيز واستيعاب برنامج تأهيله.

هززت الرأس موافقة كنت فقط وقتها أود انهاء المعاينة والخروج للتنفس ولو من حر هجير، أمسكت بالوصفة الطبية، حملت الصغير باكياً بعد انتزاع سيارة حمراء من يده كانت له نية الاحتفاظ بها وخرجت.

(7

فتحت للسيارة باباً وارتميت خائرة، دفعت بالصغير إلى حضنه علّه يسكت كعادته حينما يلعب بالمقود، لم يخف عليه حالي وهو سيد الحنين، تجرّع آخر أنفاس سيجارته ورماها خارجاً

ـ ها.. ماذا قال؟.

ــ توحد..ولا تسألني ماهو ؟.

لم أفهم مما قاله سوى أن ابننا معاق

واشـحت مـن جهـة نافـذتي، بكيـت بصـوت عـالٍ وحرقةٍ وفعل هو لكن بصمت.

اتصـالٌ هاتفـيٌ قطـع النحيـب مـن افتعالـه لشجاعة الردود.

علمت أنه ربّ عمله (وزير الصحة آنذاك)

- سنرى طبيباً آخراً .. كان جلّ رده.

ـ لا أعلم كيف وصلنا بهذه السرعة؟.

أجزم أنه ماكان يقود.. بل يطير.!.

لم يعـرض مرافقتـي وأنـا لم أطلـب، اقتحمـت غرفـة الانتظـار دون أن أُعـر للمنتظريـن انتباهـاً، وضعـت بطاقـة زوجـي عـلى الطاولـة أمـام السـكرتير ووقفت انتظر صامتة.

- تفضلي مدام..

ينتظرك.. وأشار إلى غرفة.

الطبيـب النفـسي صاحـب الوجـه البشـوش يبـدو أنـه عـلى اطـلاع بحالتنـا قبـل وصـولي، أسـئلة روتينـة حفظـت أجوبتهـا عـن ظهـر وجـد، قضينـا نصف ساعة من الوقت.

طالبني بصور شعاعية، وتخطيط للسمع، وتحاليل مختلفة، رفض مبلغ المعاينة، سألني عودة قريبة، وقف مودعاً.

قال: سلامي لمعاليه.

(8

لم انتظر سؤاله..

عاجلته بالقول: طلب أشعة وتحاليلاً وتخطيطاً للسمع.. وقال عودي.

الوصول إلى مركز الأشعة كان بصعوبة هذا اليوم بِحرّه ووجعه، وتشتتنا، تيه في خضم أحداث متعاقبة التلاطم، شديدة السطوة.

لكننا أردنا الخلاص بصدق.. نريد كلاماً فاصلاً، شديد البياض واليوم بالذات لا غداً.

(9

أخذوه منا.. للتخدير..

كنت أراقب صراخه ورفضه ثم صمته المطبق، وأنا أبالغ في جذب يمان إلى صدري لا أعلم لماذا؟

من خلف زجاج سميك وقفت أراقب عملهم، تصوير الجذع الدماغي..

التخطيط الكهربائي.. شدة السمع..

ورأيت لونه دمه المسحوب إلى ابرة كبيرة لاكمال بقية التحاليل..

وأنا اتابعهم يتنقلون به بلا حول منه بين أحدث الاجهزة ..

لم أبك.. لم أرتجف..

كنت فقط ساخطة على كل شيء ....وجداً.

(10

لم يعد الوقت ملائماً للعودة إلى الطبيب بما طلبه منا رغم رغبتنا بالانتهاء ذاك اليوم، تكفلت الصغيرة بإطعامهم وتجهيزهم للنوم..

كان (يامن) مأخوذاً بآثار التخدير فلم يشاغب ولم يعترض حتى على الدخول في السرير.

ليلة كما سابقاتها قضيتها قهوة ودخان، تختلف عنهم بجلوسي خلف شاشة الحاسوب أسأله فك طلاسم هذا المدعو ..التوحد.. أمامي..

هالني ما قرأت..!

انتفخ رأسي كمنطادٍ تجاوز مساحة الغرفة، وتضاءلت روحي حتى عبرت بسهولةٍ سم الخياط..

وغفوت ..

(11

بأقدام لينة المفاصل، هادئة الخطوات، مكسورة الكاهل، و بلا مشاعر معينة، حملت رزمة من المصنفات، واتجهت وحدي نحو غرفة الطبيب، تصفحها بخبرة وتفهم، كما كان يعي مشاعري تماماً، ويتصفح تقلباتي

ـ سليمٌ.. سليمٌ كما توقعت، لو كان به أي خلل بهذه الاختبارات لنفي اضطرابه

هكذا قال:

أي أم كنت أنا وقتها لا أعلم؟

عندما تمنيت لو كان أصماً.. أبكماً.. ليته مصابا بأي شيء ولا أسمع جملة (أجزم أنه توحدي)

رفعت الأوهام ... ولم تجفّ المآقي.